- اللســـان -

ويسألونك عـن الإنسان وماهويته فقـل إنَّ الإنسان بجوهره عقـلٌ يفكـّر ولسانٌ يعبـّر. هــذا الإنسان الذي يملك عقـلاً غرائزياً إنطبعت علــى مرآتــه كـلّ الحقائــق الكليـّة والبديهيات المنطقية وذلك منـذ بدء التكوين. فهو ما إن يعود إلى نفسه قارئـاً ما نقش على مرآة جوهرها حتـى يعرف التمييز بيــن الحـقّ والباطـل، بين العدل والظلم بين الخيــر والشرّ. ولكن الإنسان بأفعاله السيئة وإصراره على المخالفة والمعاندة طمس نــور تلك المرآة بصدأ المعصية والإستكبار فظنَّ أنّ الحقائــق غيــر موجـودة إصلاً وتصرف علــى هذا الأساس.

كذلك يملك الإنسان عقلاً مستفاداً يتعلم بواسطته مـن أصحاب المعرفة والحكمة ومن تجاريب الحياة العملانية. وهذا العقـل المستفاد يقبــل النــور كما يقبـل الظلمة ويقبـل المعرفة كما يقبــل الجهل. وهو يتحمّل مسؤولية مــا امتزج به مــن علم أو جهل.
والإنسان السوي يبــدأ حياتــه مستفيداً مــن أولي الألباب وأصحاب التجارب العادلـة الناجحة ومما تركـه العقلاء مــن تراث وصفوة فـي خدمة جميع أبناء البشر. وعندما يشتدّ عود إستفادة المستفيد ينتقــل إلــى المرحلة الثانيــة فيصبح مفيداً لأن زكاة العلم نشره علــى مستحقيه. وعندها يخــرج الإنسان من فردانيته ليغدو كائناً إجتماعياً يفيد ويستفيد يجــذب وينجذب يفعل وينفعل. فــي كل ذلك يكــون اللسان ترجمــان العقــل فيظهر مــا بطــن ويكشف ما استتـر ولهذا يكــون اللسان أفضل الأشياء عند الإنسان وأسوأها في نفس الوقت.

أفضلها فــي التعبير عـن الحقّ والخيـر والجمال والعدالة، وأسوأها في نشر الأباطيل وتلبيس الباطل ببعض الحقّ لخداع النــاس والتمويه علــى عقولهم. ولهذا قيــل رأس الإيمان صدق اللسان ورأس الكفــر الكذب والبهتان، لأنّ مــن هو كاذبٌ كافرٌ بلسانه هو بقلبه أشدّ كذبــاً وكفــراً.

قـال تعالى في كتابه العزيز في وصف أهل الحقّ والإيمان: " ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليـا".

وهذا دليلٌ قاطعٌ أنّ الصدق هو رأس الإيمان. وأن المؤمن في رعاية الرحمة الإلهية في الدنيا والآخرة. ومن مظاهر العدل الإلهي أنه لم يرسل نبيًّا هاديًا إلى قوم إلا كلمهم ذلك النبي بلسانهم كي لا تشتبه عليهم الأمور وتلتبس المعاني فيغرق الناس في متاهات التفسيرات المتباينة.

قال تعالى: " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم" ونحن العرب نعتبر آيات القرآن الكريم رأس هرم البلاغة والفصاحة بل معجزة البيان والتبيين.

قال تعالى أيضا في كتابه العزيز: " نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين" ، ومن أجل ذلك اجتهد علماء اللغة وكابدوا الأمرين لضبط قواعد اللغة مع الفراهيدي وسيبويه وغيرهم كي لا يدخل اللحن إلى اللغة فيفسد النطق وتفسد القراءة وعندها يلتبس المعنى ويتذبذب على أكثر من وجه.

قال الأمير عبدالله التنوخي: الكلام أربعة أقسام قسمٌ منه حقٌّ محض وقسمٌ آخر باطلٌ محض وقسمٌ ثالث هو مزيج حقّ وباطل وقسمٌ ثرثرة. ولذا يتطلب من العاقل أن يحذف ثلاثة أرباع الكلام ويكتفي بالربع الحقّ الذي ينفع ولا يضرّ.

وقال النبي الكريم: لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه.

وبهذا يتدارك النبي الكريم مشكلة الإزدواجية أو النفاق في شخصية الإنسان أي أن يكون ظاهره شيءٌ وباطنه شيءٌ آخر.

قال الإمام علي: لسان المؤمن من وراء قلبه وقلب الكافر من وراء لسانه، فالإمام علي أراد أن يبيّن لنا أنّ الكافر لا عقيدة له ولا مبادئ بل مصالح وشهوات ورغبات تتقلب بتقلب الأزمنة والأمكنة والأحوال. أما المؤمن فهو صاحب مبادئ وثوابت لا يحيد عنها حتى لو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره.

وقال الإمام علي أيضا: تكلموا تُعرفوا فالإنسان مخبوءٌ وراء لسانه وهذا يشير أنّ الصادق يُعرف بكلامه وكذلك الكذوب ولا ينخدع إلا الأغبياء الذين ران على أبصارهم وبصائرهم فيحسبون السراب ماءً ويجرون وراءه لاهثين.

ومـن منا لم يحفظ عـن ظهر قلب قـول الشاعر:

لا خيـر فـي ودّ امـريء متملـّق   حلـو اللســان وقلبـه يتقلـّب
يعطيك مـن طرف اللسان حلاوةً   ويروغ منك كما يروغ الثعلب

وكذلك قـول أحد الحكماء في وصف المنافقين: ألسنتهم أحلى من العسل وأفعالهم أمرّ مـن الصبر.

أما الفيلسوف سقراط فكان يطلب مـن تلاميذه أن يكثـروا مـن الإصغاء ويقلـّوا من الكلام. حتى إذا تكلموا كان كلامهم جامعـاً مانعاً قاطعاً كحدّ السيف. وكان يقول لهم: خلق الله للإنسان لساناً واحداً ليتكلم وأذنين إثنتين ليسمع.

ولم أقرأ فـي هذا السياق أجمل مـن الحكمة العربية التـي تقول. إعقل لسانك إلا عن أربعة حقٍّ توضحه وباطلٌ تدحضه ونعمةٌ تشكرها وحكمةٌ تظهرها.

وكذلك قولــه تعالــى: وأمـّا بنعمة ربـّك فحدّث.

ونعم الله لا تحصى فجلالته لم يكتف بإعطائنـا البصر لنـرى بـل أعطانـا البصيرة لنعتبـر، ولم يكتف بإعطائنـا العقـل لنعقل أنفسنا عـن الشهوات والشبهات بـل أعطانا العقـل لنعرّج فـي المعرفة مـن منزلة إلى منزلة حتى نتواصل مع المعارف الإلهية والفضائل البرهانية ولمعات المشاهدة الصوفية وهي غاية الغايات وسعادة السعادات التـي لا سعـادة بعدهـا لأنها تُطلب لذاتها ولا تُطلب لغيـرها. وإذا كانت نعـم الله لا تحصى فأولى واجبات اللسان هـي الشكر وأولـى واجبات العقـل هـي الإعتبار.

كمال يوسف سري الدين